المقتطف

الجزء السادس من المجلد الرابع والثلاثين

١ يونيو (حزيران) سنة ١٩٠٩ — الموافق ١٢ جماد اول سنة ١٣٢٧

السلطان عبد الحميد

في مثل هذا اليوم من العام الماضي لم تكن ترى كاتباً واحداً يخطّئ سياسة السلطان عبد الحميد ويندّد باعماله حتى ترى مئة كاتب يصوّبون سياستهُ ويثنون بمدحهِ ويقولون انهُ يجمع الفضائل وآية الحكمة والعدل . حتى ان اكثر الخطب التي تليت في بلاد الشام ونشرناها في المقتطف كانت مفتتحة وتختتمة بترتيل آيات الحمد لهُ والدعاء بتأييد شوكتهِ الى آخر الدوران فكنا نحذف ذلك منها لانا لا نجد لهُ محلاً في الخطب العلميَّة او الادبية وقلما كنا نخلو من لوم اصحابها . ولو جُمعت القصائد التي نظمت في اطرائهِ والكتب والفصول التي كتبت في تمداد مناقبهِ لملأت مئات من المجلدات . وقد انقلبت الحال الآن اي انقلاب فترى من المئة الذين كانوا يمدحونهُ ويمجدونهُ تسعةً وتسعين يجاهرون بذمهِ ويقولون انهُ كان طاغية سفاحاً خرب البلاد وسلب العباد حتى لقد قال فيهِ اكبر مادحيهِ بالامس

مشبع الحوت من لحوم البرايا ... ومجيع الجنود تحت البنود

واكثرهم اعتدالاً في لومهِ اليوم هم الذين كانوا يندّدون بسياستهِ بالامس

ولا يحسن بالمرء ان يقف لدى هذا الحادث الجلل وهو قيام السلطان عبد الحميد وسقوطهُ الاَّ وينظر اليهِ لنظر المؤرخ الذي يتوخّى ذكر الحقائق خالصة من شوائب التحامل والتملُّق عساهُ يجد فيها عبرة وذكرى

يرى الباحث الاجتماعي امرًا لا يخفى على احد وهو ان الممالك الثابتة العرش العثماني كانت في سالف عهدها ارقى منها الآن وان الانحطاط تولاَّها منذ الفي سنة ثم جعلت تعلو وتسفل اونةً بعد اخرى واتجاهها الى الانحطاط اكثر منهُ الى الارتقاء كموج البحر وقت

جزرم حتى اذا كان القرنان الاخيران اللذان ارتقت فيهما ممالك اوربا ارتقاء لا مثيل لهُ في عصور التاريخ السالفة ظهر الفرق الشاسع بينها وبينها على انهُ · ولهذا الانحطاط اسباب كثيرة قد تتعذَّر معرفتها كلها وليس من غرضنا البحث فيها الآن ولكن لا شبهة في انها ليست مرتبطة بطبيعة البلاد ولا باحوال سكانها الجسدية والعقلية · ويقيننا انهُ يسهل عليهم بلوغ اعلى مراتب الامم الاوربية اذا سموا الى ذلك في طريقهِ وزالت الحوائل التي تحول دونهُ واخذوا باسباب العمران كما اخذ بها غيرهم من سكان المشرق والمغرب وهي على ابوابهم ميسورة لهم كما هي ميسورة لسواهم · فالشاب العثماني يستطيع ان يصير طبيباً او قاضياً او تاجراً او مهندساً او قائداً كما يستطيع ذلك الشاب الانكليزي او الفرنسوي او الالماني · والفلاَّح العثماني يتمن حرفتهُ وزرعهُ مثل الفلاح الفرنسوي ويقتصد في نفقاتهِ مثلهُ او اكثر

ولا شبهة ان البلاد ارتقت بعض الارتقاء في العهد الاخير عهد السلطان عبد الحميد واكثر الفضل في ذلك للرسالات الدينيَّة الاميركية والانكليزيَّة والفرنسوية وللتجار الذين اقاموا في بلادنا ولاتصالنا بالاوربيين واتصال الاوربيين بنا

ولسنا ممَّن يجرد حكم السلطان عبد الحميد من كل مزية نافعة فقد كانت لهُ مزايا كثيرة ولا سيما في اوائل وقد راق لنا حينئذٍ ما كتبهُ الاستاذ قبيري المجري في هذا الموضوع منذ تسع عشرة سنة فترجمناهُ ونشرناهُ في صدر الجزء الحادي عشر من المجلد الرابع عشر من المقتطف وكان السلطان قد استدعاهُ اليهِ واطعمهُ على مائدتهِ واغدق عليهِ نعمهُ فقال

" ان جلالتهُ لا يترك واسطةً للملاطفة غيرهُ وبسطهم الاَّ اجراها فقد قدَّموا لي على مائدتهِ يوماً صحفةً من الفروله (الفريز) مرتبةً في خطوط وصفوف بحسب الوانها وعلى وجه الصحفة رقعة كتب فيها هذا من الاثمار التي ربَّاها جلالتهُ بيدهِ · وقدَّموا لي مرةً تفاحة وخوخةً من اشهى ما رأتهُ عيني واحنى جلالتهُ رأسهُ اشارة الى تكرمهِ بهما خصوصاً · ولما دُعيت آخر ليلة على مائدتهِ شجاني سماع الالحان المجرية تصدح بها الموسيقى السلطانية في قاعة مجاورة فالتفتُّ نحوها واذا خادم واقف بجانبي فخاطبني وقال لي ان جلالة مولاي السلطان ارسلني لابلغك ان الموسيقى السلطانية تعلَّمت اللحن المجري الوطني بأمر خصوصي لتسمعك اياهُ هذه الليلة "

وقال في اوصافهِ الشخصية انهُ "يقضي يومهُ من الصبح باكراً الى ان يتناول المساء مهتماً بقضاء اشغال الدولة وبهام السلطنة ناظراً في كل قضية مهمة وغير مهمة مستوعباً كل تفاصيلها حتى يكاد يقضي صحتهُ ويعاوق سير الحكومة · وقد دخلت عليهِ يوماً فوجدتهُ جالساً على

ديرانهِ وعن يمينهِ عدد عديد من الجرائد التركية وترجمات من الجرائد الاجنبيةِ متراكمة بجانبهِ كوماً عالياً وعن يسارهِ ما يضافيها من اوراق الحكومة المعروضة على جلالتهِ لمراجعتها والتوقيع عليها . وكان وهو يحدثني ينظر من طرف خفي بحدةٍ ويسرةٍ طوعاً لما يتردد في نفسهِ من حب الرجوع الى مطالعتهِ . ولا يخفى ان الدولة التي يجهد سلطانها نفسهُ كل هذا الجهد في قضاء مهامها يضيق نطاق سلطة وزرائها . ويندر وجود سلطان مثلهُ يقضي مع وزير ماليتهِ الساعات الطوال وهو مكبٌّ على مراجعة حسابات السلطنة وتنقيح دفاترها وامعان النظر في تفاصيلها واجهاد القريحة في استنباط التدبير والاحتياط اللازم للاقتصاد"

وقال مدافعاً عما كان يأتيهِ من الاستبداد في حكمهِ " لا ازى اسدٌ من كلامهِ حيث قال لي يوماً ان اوربا قد عزقت ارضها ومهدت تربتها اعواماً وعصوراً حتى جاءت بما تراهُ فيها من مصادر الحرية والمنشئات الحرة والآن تطلبون اليَّ ان اقلع نسيلة من منابت الحرية التي فيها وافرسها في اراضي اسيا الوعرة البائرة القاحلة . دعوني انهد هذه الاراضي تبلاً بما يحسنها فاقتلع اشواكها وارفع احجارها واقلع ثربتها واحفر الاقنية لارواثها ثم انقل تلك النسيلة اليها واكون اول من يطيب نفساً ويقرُّ عيناً بنمائها ولضارتها "

وفي عنهُ استخدام الجواسيس وقال " ان كل ما سمعهُ من هذا القبيل اختلاق او مبالغة وغلو واصل تلك الاقوال كلها ان رجالاً من اهل البلاط يستخدمون الجواسيس سرًّا ويرصدون العيون خفيةً لاجراء دسائسهم ومكايدهم الشريرة وتنفيذ مآربهم الفاسدة وجلالتهُ عالم بكرهم ودهائهم ولكن كشف حيلهم واظهار دسائسهم ومكايدهم ليس بالامر السهل عليهِ كما يتوهم الاوربيون في بلادهم "

هذا ما كتبهُ الاستاذ ڤمبري منذ نحو عشرين سنة وهو يعلم انهُ سيترجم للسلطان عبد الحميد فيطَّلع عليهِ ويجزيهِ على مدحهِ احسن جزاء . وقد قال في صدر مقالتهِ ان الناس في البلدان الشرقية على دين ملوكهم فانظر الى الملك تعرف رعيتهُ . وحقهُ ان يقول ايضاً انظر الى الرعية تعرف ملكها وانظر الى المقرَّبين تعرف الملك الذي قرَّبهم اليهِ

ومقالة ڤمبري مع ما فيها من المدح وكثير منهُ كان في محلهِ لا تخلو من الاشارة الى الاسباب التي كان لها اليد الطولى في افساد السلطنة كما رأيت في ما تقدَّم فان كثرة اشتغال الحاكم بالمسائل الهامة وغير الهامة تضني جسمهُ وتضعف عقلهُ وتفسد احكامهُ وتقيد وزراءهُ وتبطل نفعهم . ولا يبعد ان كثرة اشتغال السلطان عبد الحميد اورثتهُ خللاً عقلياً وهو ايجاس الشر والخوف المستمر من كيد المكايد لهُ ان لم يكن ذلك خلقاً

قديرٌ فيهِ فاستعان باجواسيس على كشف المكايد الخوصة واستحصَّ كل شيء للنجاة منها. وعرف الدهاة منهُ ذلك فتقربوا اليهِ بكل ما يزيد وساوسهُ ويؤثر في نفسهِ استدرارًا لنعمهِ فاضطرَّ ان يكثر موارد امواله ليستطيع استرضاءهم ورأى غيرهم منهُ ذلك فساعدوهُ على جمع الاموال واقتناء الاملاك بكل وسيلة فبلغ الفساد في السلطنة مبلغًا لا نظير لهُ حتى ان مختار باشا الغازي كان يقول لنا حينما يطلب منا الكف عن انتقاد معايب الحكومة العثمانية انكم لا تعلمون منها عشر ما اعلمهُ انا ولكنني اؤكد لكم ان الانتقاد يضرُّ بكم ولا ينفع احدًا

وعاد الاستاذ فهيري فعرف خطأهُ وارعوى ورأى عيوب الحكم الحميدي كما رآها غيرهُ وهو يرجو الاصلاح الآن لتركيا بهمة رجالها الدستوريين كما يرجوهُ غيرهُ من المخلصين لها

وتمكنت الوساوس من عبد الحميد حتى صار يعتقد ان الناس كلهم يأتمرون عليهِ ويقصدون الايقاع بهِ فلم يعد يهنأ لهُ عيش الَّا بتجسس اخبارهم وصار آلة في ايدي المحتالين يرهبونهُ بتأليب الجماهير على الفتك بهِ وانهم هم وحدهم القادرون على كفّ شرهم عنهُ فذلك وحرصهُ على كثرة المتنبئات وحرص المقرَّبين منهُ على تملُّقهِ وظلم الناس باسمهِ وجشع بعض الاتقين من رعيتهِ ومن غير رعيتهِ كل ذلك ولَّد في السلطنة العثمانية حالة لا تطاق فهجرها الذي استطاعوا المهاجرة وصبر على النير الذين القوهُ من احرار النفوس واشترك غيرهم في الفساد الذي عمَّ وطم الى ان تمكنت جمعية الاتحاد والترقي من اعلان الدستور فتظاهر اولاً ان ذلك كان برضاهُ وهو غاية ما يتمناهُ ثم دس لها الدسائس وشاركهُ اهوانهُ حتى كاد يوقع بها ولو صبح السلطنة بالدماء لكنها تمكنت من خلعهِ وتنصيب اخيهِ بدلاً منهُ كما هو معلوم

والسلطان عبد الحميد هو الرابع والثلاثون من سلاطين آل عثمان والثامن والعشرون منهم في القسطنطينية ولد في ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٤٢ وابوهُ السلطان عبد المجيد وامهُ سرية ارمنية والصفات الارمنية ظاهرة فيهِ خَلقًا وخُلقًا. وتوفيت امهُ بمرض الصدر وعمرهُ سبع سنوات وأصيب هو بهِ في صغرهِ لكنهُ شفي منهُ وكان في حداثتهِ ضعيف البنية قليل الرغبة في العلم. واولاد السلاطين يعلَّمون مع التركية والفارسية لغة اجنبية اما هو فكان يكره تعلُّم اللغات وغاية ما حفظهُ منها قليل من الفرنسوية تعلمهُ من فتاة بلجيكية. وربي تربية لا تثقف العقل ولا تهذب الاخلاق ولا تدمث الطباع. وزار اوربا مع عمهِ السلطان عبد العزيز ويقول الاستاذ فهيري ان صور مدنها ومشاهدها انطبعت في ذاكرتهِ و يقول المستر مارو

انهُ لم يستفد من هذه الزيارة شيئاً فبقي على كرههِ للاوربيين

وقد الَّف جورج دورس بكْ ادوسيدس باشا والي كريت كتاباً في السلطان عبد الحميد طُبع منذ نحو ثماني سنوات وصفهُ فيهِ في حداثتهِ وصفاً يفسّر ما صار اليهِ في كهولتهِ . ويظهر مما ذكرهُ في كتابهِ انهُ عاش حول يلديز وكان لهُ فرَص غير عادية للوقوف على احوال السلطان واعمالهِ فعرفها معرفة مَن يراها عن قرب ويعلم سوابقها ولواحقها وما ترمي اليهِ وقد قال في كتابهِ ان السلطان عبد الحميد لم يهتم قط باصلاح بلادهِ بل فعل كل في طاقتهِ لخرابها منذ خمس وعشرين سنة الى الآن فخنق جرثومة الحرية التي كان يمكن ان تحيي البلاد وقطع عنق استقلالها وهو في مهدهِ فحصر السلطة في يدهِ بالحيلة واودى بكل مَن اوجس منهُ المخالفة لهُ وشلَّ اعصاب حب الوطن وكمَّ فم الصدق وقيَّد استقلال الفكر والضمير وذبح الالوف من رعاياهُ ولم يهتم الاَّ بتعزيز عرشهِ مهما كلَّف البلاد فاستخدم في سبيل ذلك الصنيعة والجاسوسية والجهل والجور والرشوة والصرامة وما بين الرجال من الضغائن والاحقاد

وكتاب دورس مشحون بمثل هذه المذام وقد حُكم عليهِ بالاعدام بسببهِ فهرب الى باريس ولم تشأ الحكومة الفرنسويَّة ان تسلمهُ للحكومة العثمانية . الاَّ ان غيرهُ من الكتَّاب لم يوافقوهُ على كل ما كتب فالاستاذ ادون شرفنور الاميركي وقد كان من اساتذة مدرسة روبرت الاميركية في الاستانة وصفهُ منذ خمس عشرة سنة وصفاً لا يوصف بهِ الاَّ اعاظم الملوك واعدلهم فقال انهُ كريم جوَّاد يهتم بخير رعيتهِ وليس بين الملوك من يجاريهِ في الجود على ذوي اليأساء . لكنهُ ذكر في عرض ذلك ما يحسب مصدر اسرهِ الاحكام وهو اهتمامهُ بالصغائر كما تقدَّم فقال انهُ يهتم اشد الاهتمام بكل مسألة مهما كانت طفيفة

وكذلك دهـ موشمس البوناني تغنَّى بمدحهِ وقال انهُ سائر في خطة مُحمَّد الفاتح وسليمان القانوني وقد عضد العلوم والفنون وهو وديع انيس كريم مستنير ذكي الفؤاد عالي الهمة كثير الاشتغال بمهام السلطنة سديد الاحكام فيها

وقال صموئيل كوكس سفير اميركا في تركيا انهُ ملك بكل معاني الكلمة ويستحق اعظم مدح على ما بيديهِ من المقدرة في سياسة بلادهِ والتوفيق بين شعوبها المختلفي الاجناس والمذاهب

وقد كتب هذا السفير ذلك منذ ١٧ سنة . والظاهر ان اكثر الذين كتبوا عن السلطان عبد الحميد قبل المذابح الارمنية كانوا ميَّالين الى مدحهِ واطراء سياستهِ ولو ذكروا عرَضاً كثرة اشتغالهِ واهتمامهِ بالمسائل الطفيفة . ويظهر من ذلك ان الاعمال الظاهرة

التي عملها في النصف الاول من سني ملكه كان اكثرها مما يمدح عليه وان الاعمال المذمومة التي حملهُ عليها خوفهُ على نفسهِ كقتلهِ لمدحت باشا كان بفعلها خنية ثم زاد خوفهُ على نفسهِ وايجاسهُ الشر فاكثر من استخدام الجواسيس وصار وسواسهُ هذا يزيدهُ اقداماً على الفتك بالذين يخاف منهم والفتك بهم يزيدهُ خوفاً ووسواساً . مرضٌ عصبي استولى عليهِ وزادهُ المقربون منهُ مرضاً بحيلهم ووشاياتهم واكاذيبهم . ولقد صدق بتلقيبهم بالخوّانة ولعلهُ كان يعلم دائماً انهم كذلك ولكنهُ كان يخشاهم ولا يستطيع التخلص من استهوائهم . وكيف يستطيع وهو مصاب بالضعف العصبي (Neurasthenia) كما قال احد اطبائهِ وبالارق المزمن وبالخوف من الاغتيال حتى صار يحسب ان الناس لا يأتمرون الاَّ على قتلهِ فيلقون القنابل في طريقهِ ويحفرون الامراب تحت الارض للوصول اليهِ . وان صحَّ ما روي عنهُ من انهُ قتل ابنة صغيرة من بناتهِ مخافة ان تكون قاصدة اغتيالهُ فذلك وحدهُ كافٍ لتفسير كل اعمالهِ

وما ابتلاؤهُ بهذا النوع من الجنون باغرب من صبر اعوانهِ عليهِ وتسابقهم الى الانتفاع من وسواسهِ وهم يرون بعيونهم ما حلَّ بالسلطنة ولا يأتمرون على انفسهم يوماً بين يديهِ واذا تيسَّر لاحد منهم الفرار من الاستانة او الخروج منها لم يعد اليها مها اغري بالمواعيد. وهل انقرض اولئك الاعوان الآن او لا يخشى انهم يتقرَّبون الى السلطان الجديد بمثل ما تقربوا بهِ الى السلطان المخلوع . قرأنا بالامس خرافة نشرت في جريدة عربيَّة بمدينة باريس يظهر لقارئها ان كاتبها يقصد ان يتوسَّل بها الى ابهام جلالة السلطان بصحة معرفة الطوالع وصدق الخزعبلات . والا وهام التي من هذا القبيل قد تجوز على عقول العلماء فلا عجب اذا جازت على عقول ملوك الشرق الذين ليس لهم حظ كبير من درس العلوم الطبيعيَّة والبحث عن نقض الخرافات ولذلك لا ضمان للامة العثمانية الاَّ اذا تولَّت احكامها وزارة قوية رشيدة من مجلس نواب يضم نخبة رجالها المثقفين المتنورين

لكنَّ ما نقرأهُ عن جلالة السلطان محمد الخامس يحقق لنا انهُ يكون سلطاناً دستوريًّا بحتاً فقد روي انهُ قال لوفد من اعيان مدينة بروسه تقدموا منهُ فان الرعية يجب ان تكون متصلة بسلطانها غير منحازة عنهُ . وقال لم ايضاً ان الامة تجد السلطان دائماً ولكن السلطان لا يجدها دائماً فاذا سار على هذه الخطة دائماً ولم يقرب الاَّ الاكفاء المخلصين للوطن حقق فيهِ امال رعيتهِ